.. علاقة المقاومة بالبنية الاجتماعية

إذا تتبعنا حركات المقاومة العربية والإسلامية في التاريخ المعاصر نكتشف حقيقة واضحة للعيان ، وهي أن الحكومات والدول والجيوش النظامية فشلت دائما في مواجهة الغزو الخارجي في حين نجحت المقاومة الشعبية في ظروف معينه ، وهذه الظروف تحديدا هي ما ينبغي معرفته ودراسته حتى ننجح في مواجهة هذا التحدي ، وهو التحدي الذي نعاني منه منذ قرنين على الأقل وبصوره مستمرة ، السبب في فشل الجيوش النظامية والحكومات والدول ونجاح المقاومة الشعبية في ظروف معينة ، هو أننا أولا امة ذات طبيعة خاصة ، وأنها امة ذات ثقافة معينه وهي الثقافة الإسلامية ومن ثم فإن هذه الأمة والجماهير لن تتحرك إلا من خلال الوجدان الإسلامي ، وبما أن الحكومات والدول والجيوش لم تكن تنطلق في عمليه المواجهة من خلال المنظومة الإسلامية بسبب قيام انظمه حكم ودول تتبنى مرجعيات أخرى مخالفة أو ليست نقية تماما بالنسبة لهذا الوجدان الإسلامي ، فإن الفشل هنا بديهي ، فكيف نواجه منظومة حضارية تغزونا بجيوشها وبثقافتها وحضارتها بقيم وثقافات ومرجعيات مستمدة من نفس الأرضية الحضارية المعادية أو لا تخالفها تماما ، لأن أي قدر من الميوعة وعدم الحسم في رفض المنظومة المعادية يعني مباشرة أننا تمت هزيمتنا قبل أن تبدأ المعركة.

ولكن هذا بالطبع لا يكفي لتفسير الظاهرة ، ولا بد من البحث عن أسباب أخرى

لظاهرة نجاح عمليات المقاومة في ظروف معينه وفشل الحكومات والجيوش في مواجهة الغزو الأجنبي.

لدينا العديد من التجارب الناجحة في حركات المقاومة، المقاومة الشعبية المصرية ضد الحملتين الفرنسية ١٧٩٨-١٨٠١ م والإنجليزية «حمله فريزر» ١٨٠٧م، مع ملاحظة انه على حين قاومت كل قرية ومدينه في مصر بما فيها القاهرة ضد الحملة الفرنسية ١٧٩٨-١٨٠١م وكذا قاومت القوى الشعبية حملة فريزر بعد فشل المماليك في مواجهة الفرنسيين عام ١٧٩٨ وهزيمتهم في معركة إمبابه، وكذا غياب الحكومة « حكومة محمد علي عن عملية المواجهة ضد حملة فريزر ١٨٠٧ لأنه كان بالصعيد مع جيشه يطارد فلول المماليك المعارضين لحكمه ... فإنه في عام ١٨٨٢م عندما دخل الجيش الإنجليزي القاهرة لم تنطلق عليه رصاصه واحدة بعد هزيمة جيش العرابيين في التل الكبير !!

وهناك أيضا تجربه المقاومة الشعبية في الجزائر وتونس والمغرب وفلسطين وسوريا والشيشان وإندونيسيا وغيرها، وهناك المقاومة الشعبية المصرية في السويس بقيادة الشيخ حافظ سلامه سنه ١٩٧٣م وكذا المقاومة الشعبية في لبنان «حزب الله» وتحقيقها انتصارين كبيرين على إسرائيل عام ٢٠٠٠، وعام ٢٠٠٦ وهناك حركات المقاومة الفلسطينية « حماس، الجهاد وغيرها ».

وإذا درسنا البنيه الاجتماعية التي أدت إلى ظهور ونجاح تلك الحركات نجدها تتلخص في عامل رئيس هو ضعف الحكومات ووجود بنيه اجتماعيه أصليه أقوى من الدولة، مع وجود عوامل أخرى طبعا، ولعل هذا العامل الرئيسي هنا هو موضوع بحثنا.

***

عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر كان هناك بنيه سياسية واجتماعية واقتصادية معينة، كان هناك السلطان الذي يعين الوالي والوالي يحكم عن طريق الديوان والمماليك، ولكن هؤلاء جميعا كانوا في القلعة، يديرون الأمور السياسية

والعسكرية وجمع الضرائب دون تغول ولا نفوذ حقيقي اكثر من ذلك على الجماهير ، وفي المقابل كان هناك الأزهر ، وعلماء الأزهر الكبار والمتوسطين والصغار ، وهؤلاء كانوا يديرون الحياة الاجتماعية في المدن والقرى وكل مكان ، وكان هناك ارتباط عضوي بينهم وبين الجماهير ، فهم يفتون لهم في الأمور الدينية والدنيوية، ويحكمون بينهم ويديرون مجتمع أهلي كامل شبه مستقل سياسيا واقتصاديا عن الحكومة ، وحتى الحكومة ذاتها كانت تلجأ لعلماء الأزهر في معظم المشاكل الحادثة ، وإذا حدث احتكاك بين الجيش « المماليك » وبين الأهالي فإن علماء الأزهر هم من كان يقود الأهالي لاستعادة الحقوق وتحقيق نوع من التوازن ، أو حتى تهدئة الأهالي والوساطة لدى الوالي.

وكان الأزهر مستقلا في أموره الاقتصادية عن الدولة ومن ثم كان حرا في قراره ولم يكن مسلوب الإرادة تجاه السلطه ، كان هناك نظام الأوقاف التي يديرها العلماء والأهالي أو يمكن أن نقول الميزانية المستقلة، من ناحية ثانية كان هناك الطوائف والحرف ، ولكل حرفه شيخ أي نقابة ورئيس نقابة ، نقابة العطارين والنحاسين والحدادين والنجارين ... بل وهناك طائفة الأشراف ونقيب الأشراف وكل هؤلاء يديرون أعمال الأهالي بصورة مستقلة أو فيها قدر كبير من الاستقلال عن الحكومة ، وكان هناك نمط من الاقتصاد شديد الاستقلال ، فهناك الزراعة وهناك الحرف المرتبطة بالخامات المحلية والخبرات المحلية والاستهلاك المحلي ، كصناعة الفخار والحصر ، والجريد والأخشاب ... الخ

ومن ثم فإن سقوط حكومة المماليك بعد معركة إمبابه سنه ١٧٩٨ لم يؤد إلى انهيار المجتمع ، لأنه المجتمع كان أقوى من الحكومة ويستطيع أن يعيش معها أو بدونها ، ومن ثم استمرت المقاومة الشعبية في كل مكان في مصر ضد الوجود الفرنسي ، وشارك فيها كل الناس بقيادة علماء الأزهر ، شارك فيها الفلاحون والحرفيون والأشراف وعلماء الأزهر ، والتجار وسجلت تلك المقاومة أروع سطور البطولة والفداء والسخاء ونجحت في هزيمة الحمله الفرنسية واندحارها وخروجها عام ١٨٠١ ، وأفرزت الحركة الشعبية قيادتها الطبيعية من علماء الدين والتجار

والأشراف من عمر مكرم ، الشيخ السادات ، السيد أحمد المحروقي كبير التجار ، والشيخ القويسني ، والجوسقي .. الخ

نفس الأمر حدث عام ١٨٠٧ حين كان محمد على غائب في الصعيد يطارد المماليك وقامت القوى الشعبية بتجهيز المقاومة والمتطوعين من الأهالي بقيادة السيد عمر مكرم حيث ذهبت إلى رشيد والحماد وبمساعده أهالي رشيد والحماد تم دحر حمله فريزر ١٨٠٧م.

وهكذا فقد نجحت المقاومة الشعبية في تحقيق انتصارين في اقل من عشر سنوات، على أقوى قوتين في العالم في ذلك الوقت إنجلترا وفرنسا بل وعلى أبرع القواد العسكريين في ذلك الزمان ، بل وربما في تاريخ فرنسا وإنجلترا ، وهما نابليون بونابرت ، والجنرال فريزر، وبديهي أن الإمكانات العسكرية بين الطرفين لم تكن متكافئة بالمرة ، فالقوات الفرنسية والإنجليزية كانتا تملكان أحدث وسائل القتال من مدافع وبوارج وأفضل الجنود المدربين فضلا عن احدث التكتيكات العسكرية.

***

في عام ١٨٨١ اندلعت الثورة العرابيه وهذا بفضل جهود كثيرة قام بها علماء الدين وخاصة عبد الله النديم ورغم أنها كانت ثوره شعبيه إلا أنها تحولت إلى حكومية برئاسة محمود سامي البارودي ، وكان عرابي وزيراً للحربية وقائدا للجيش وبديهي أنها طالما كانت المعركة بين قوتين عسكريتين منظمتين ، فإن الفوز يكون لصاحب الإمكانيات العسكرية الأكبر ولأننا منذ عده قرون أضعف من عدونا عسكريا وتكنولوجيا فإن استخدام الجيش والدولة في المواجهة يؤدي إلي نتيجة حتمية وهي الهزيمة ، وقد حدث هذا دائما وآخر ما حدث مع جيش صدام حسين رغم كونه جيش قوي يتمتع بقياده حازمة ، في حين نجحت المقاومة العراقية في تعطيل المشروع الأمريكي وتكاد تنزل الهزيمة بالجيش الأمريكي.

والذي حدث أنه بعد هزيمة الجيش المصري بقياده عرابي في معركة التل الكبير عام ١٨٨٢ تحركت القوات الإنجليزية إلي القاهرة ولم تحدث مقاومة شعبيه كما

حدث في مواجهة الحملتين الإنجليزية والفرنسية سابقاً.

وهذا يرجع إلى أن محمد على كان قد نجح في ضرب البنية الاجتماعية المتميزة والتي تفرز المقاومة ، كان محمد على قد نجح في إقامة دوله عظيمة جدا وقويه جدا ، جيش كبير وأسطو ل ضخم وصناعات حربيه واستراتيجية ، ولا بأس في كل ذلك ولكنه كان على حساب البنية الاجتماعية الأهلية المستقلة ، لقد ربط كل شي بنفسه ومشروعه وجيشه ، أصبح العامل والخبير والمهندس في علاقة مباشرة مع الدولة والإدارة ، فهي التي تدير المصانع وتنشئ الجديد منها ، وهي التي تدفع المرتبات وهي التي تأخذ الإنتاج ومن ثم فإن البنية الاجتماعية المهنية أصبحت جزءا من الدولة ولا تستطيع أن تعيش بدونها ، نفس الأمر بالنسبة للزراعة ، فبدلاً من زراعة الحبوب والخامات التي يتم تصنيعها محليا ومن ثم تحقيق نوع من الاستقلال الاقتصادي عن الدولة والعالم بالنسبة للفلاحين ، فقد قام محمد على بتأميم الزراعة ، وتحديد ما يتم زراعته وخاصة المحاصيل النقدية كالقطن والكتان ...الخ .

المهم في النهاية أن الفلاح أصبح يعتمد في حياته على ما تعطيه له الدولة ، ومن ثم فإن المجتمع الأهلي في القرية قد ضعف إلى حد كبير ، نفس الشيء يقال عن التجارة الداخلية والخارجية التي احتكرتها دوله محمد علي، ومن ثم لم يعد التجار يمثلون الممول الطبيعي للمقاومة كما حدث في إبان الحملة الفرنسية « السيد أحمد المحروقي مثلا » ، أكثر من هذا فإن محمد علي ضرب مؤسسه الأزهر ، ونقابة الأشراف وصادر الأوقاف ، وأصبحت ميزانية الأزهر ومعاش علماء الأزهر من الدولة ، وطارد الزعماء الوطنين مثل عمر مكرم وأنهى من ثم أي زعامة اجتماعيه أو سياسية أو دينه خارج مؤسسة الدولة وصحيح أن محمد على قد بنى دوله قويه جدا ولكنه أضعف المجتمع جداً ، ولما انهزم مشروع محمد على في عام ١٨٤٠ وما كان له إلا أن ينهزم لأن الدولة الغربية ستظل الأقوى عسكريا مهما فعل محمد علي ومن ثم سقط المشروع وضعف المجتمع ، فلما جاءت القوات البريطانية عام ١٨٨٢ لم يكن هناك مجتمعا قادرا على إفراز مقاومة قادرة على هزيمة الغزو ، وبدأت الحركة الوطنية المصرية تعيد بناء نفسها بقياده مصطفى كامل وتحاول ترميم المجتمع بإنشاء

النقابات والتعاونيات «عمر لطفي رائد النقابات والتعاونيات» في بداية القرن العشرين ، إلا أن ما تم ترميمه من المجتمع لم يسمح إلا بقدر من النضال السياسي ثم اندلاع ثوره ١٩١٩ التي فجرها الحزب الوطني وسرقها سعد زغلول والوفد.

***

في عام ١٩٧٣ نجحت القوات المصرية في عبور قناة السويس وتحرير جزء من سيناء ، وكان هذا لا يرجع إلي القوه العسكرية المصرية بل إلى نوع من الروح الإسلامية التي سمحت بها حكومة السادات في ذلك الوقت في إطار صراعها مع الناصريين والشيوعيين ، وكذلك إلى استخدام أسلوب الإنسان في مواجهة التكنولوجيا ، فرد المشاة الذي يحمل سلاحا مضادا للدبابات « نموذج عبد العاطي» ... أي أن هذا النجاح الجزئي في حرب رمضان لم يكن يرجع إلى قوة الدولة أو الجيش ، المهم انه بعد عدة أيام من هذا النجاح قامت القوات الصهيونية بإحداث ثغره في النقطة المفصلية بين الجيشين الثاني والثالث ، هي ثغره الدفرسوار ، وتسللت منها إلي غرب قناة السويس واتجهت جنوبا إلى مدينه السويس ، وكانت تلك القوات تستهدف احتلال مدينة السويس ، ولو حدث هذا لا قدر الله لكان معناه إكمال حصار الجيش الثالث أي حبلا يلتف على عنق ذلك الجيش ، والوصول أيضا إلى طريق السويس القاهرة ، أي مسدس مصوب للقاهرة ، وقد صدرت الأوامر بالفعل لمحافظ المدينة بتسليمها لأن الأوضاع العسكرية والتموينية حسب تقدير القيادة لم تكن تسمح بالصمود ، ولكن المقاومة الشعبية اندلعت فورا بقيادة الشيخ حافظ سلامة ، وتم اعتبار مسجد الشهداء مركزا للقيادة ، وتم توزيع كمائن وتوجيه متطوعين إلى مداخل السويس وحدثت عمليه مقاومة رائعة انتهت بمنع الإسرائيليين من دخول المدينة ... وقد أعترف العدو والصديق بأهمية ذلك الدور الذي لعبته المقاومة الشعبية في السويس ، وأنه لولا تلك المقاومة لتغيرت نتيجة حرب رمضان ١٩٧٣.

ما الذي جعل هذه المقاومة تأخذ القرار ، ما الذي أعطى الشجاعة للشيخ حافظ سلامة بالتصدي لهذه المسئولية الضخمة على عكس إرادة القيادة السياسية ... ذلك

يرجع في رأيي إلى أن الفترة من ١٩٧١-١٩٧٣ تم فيها نوع من تقوية المجتمع ، والسماح بالتعبير عن الوجدان الإسلامي ، وإعادة الاعتبار لعلماء الإسلام ، وإحساس الناس بأن الدولة لم تعد مرعبة وأنه من الممكن عمل مقاومة رغم أنفها . وقبل ذلك كان قد سمح للجمعيات الأهلية بالعمل ومنها جمعية الهداية الإسلامية التي كانت يقودها الشيخ حافظ سلامه، وكانت تقوم بعمل اجتماعي كبير في مدينة السويس مما أدى إلى تقوية ارتباطها بالجماهير ، وكذلك كانت تقوم بتنظيم قوافل من علماء الأزهر قبل الحرب إلى كل الوحدات العسكرية المصرية لرفع الروح المعنوية للجنود ، وتأكيد القيم الإسلامية والوجدان الإسلامي وكذا لأن الدولة كانت ضعيفة أو غير متغولة فلم نجد صعوبة في العمل .

إذا جئنا إلي حزب الله أو المقاومة اللبنانية مع الأخذ في الاعتبار عوامل أخرى مثل وقوف دولة إيران وراء الحزب . ولكن هذا لا يكفي بالطبع لتحقيق انتصارين كبيرين على أقوى جيش في المنطقة ومن أقوى جيوش العالم وهو الجيش الإسرائيلي ، إذا جئنا إلى هذا النموذج ، نجد أن الحزب نشأ في ظروف غير مواتية إقليميا ودوليا ، ولكن كان هناك ضعف شديد في الدولة اللبنانية في بداية الثمانينات بعد الخروج من الحرب الأهلية ، مما سمح للحزب بالعمل وكذا الضعف التقليدي لأي حكومة لبنانية فيما بعد بسبب التوازن الطائفي ومن ناحية أخرى فإن البنية الثقافية والدينية والاجتماعية في جنوب لبنان وبعلبك والضاحية الجنوبية لبيروت والبقاع الغربي تسمح بأن يظل الحزب أقوى من الدولة ، أي أن المجتمع الحاضن للمقاومة هنا أقوي من جهاز الدولة ، ومن ثم فإن تحقق هذا الشرط ، شرط البنية الاجتماعية المواتية كان هو العامل الأساسي في تحقيق انتصارين كبيرين عام ٢٠٠٠ وعام ٢٠٠٦ مع عدم تجاهل عوامل أخرى بالطبع بالنسبة لتجربه حزب الله تحديدا.